إسماعيل صبرى

١٨٥٤ — ١٩٢٣

شاعر بطبعه وسليقته ، وطنىٌّ بفطرته وحسن سريرته ، أدرك عهد الاحتلال فى إبان قوته وسطوته ، فتحركت شاعريته ، تجاهد الاستعمار ، وتمجد المعانى الوطنية ، وتخلدها فى قصائد غرّ تشبه أن تكون تغاريد من نبع القلب الصافى وفيض الإحساس المرهف والذوق الرفيع .

كان شاعراً رقيقاً مجيداً ، عميق الوجدان ، مقلا فى شعره ، محتاطاً فى نشر ما تجود به قريحته ، كان علماً من أعلام الطبقة الأولى من شعراء العصر الحديث ، وثانيهم بعد البارودى .

ولد سنة ١٨٥٤ بمدينة القاهرة ، والتحق بمدرسة المبتديان سنة ١٨٦٦ ، ثم بمدرستى التجهيزية والإدارة (الحقوق) ، وأتم دراسته بمصر سنة ١٨٧٤ ، ثم ألحق بالبعثة المصرية إلى فرنسا ، ونال شهادة الليسانس فى الحقوق من كلية « اكس » سنة ١٨٧٨ ، ولما عاد إلى مصر التحق بالمناصب القضائية حتى عين وكيلا لوزارة الحقانية (العدل) سنة ١٨٩٩ ، واعتزل الخدمة فى سنة ١٩٠٧ .

ظهرت مواهبه الشعرية منذ نعومة أظفاره ، وظلت تنمو وتزدهر طول حياته ، وكانت شاعريته ووطنيته عنوان مجده وموضع فخاره .

كان معاصروه يلقبونه (شيخ الشعراء) ، واعترف له بذلك زملاؤه شوقى وحافظ ومطران وعبد المطلب ونسيم وغيرهم ، وإنك لتلمح تقدير شوقى لزعامته من قوله فى رثائه :

أيام أمرح فى غبارك ناشئاً ... نهج المهار على غبار خصاف[1]

أتعلّم الغايات كيف ترام فى ... مضمار فضل أو مجال قواف

---

(١) المهار : جمع مهرة وخصاف فرس مشهور فى العرب .

ومن قول حافظ فى رثائه أيضاً :

لقد كنت أغشاه فى داره ونأديه فيها زها وازدهر
وأعرض شعرى على مسمع لطيف يحس نبوّ الوتر

تتجلى فى شعره القومى روح الحب الخالص للوطن ، والشجو الحزين على مآسيه ، والاستمساك بالعزة والكرامة ، والشمم والإباء ، ولقد عبّر بأرق القصائد عن شعور مواطنيه ، وترجم عن آمالهم وآلامهم .

كانت وطنيته عميقة الجذور ، عاش حياته لم يزر إنجلترا قط ، ولم يذهب يوما إلى الوكالة البريطانية ، فى حين أنها كانت مع الأسف مقصد الكبراء والعظماء فى ذلك العهد ، وطالما استمالة اللورد كرومر إلى زيارته ليكسبه إلى صف المناصرين للاحتلال ، فاستعصم وأبى ، ولما قيل له لعلك لو فعلت كنت اليوم رئيساً للوزارة ، قال : وماذا تفيدنى رآسة الوزارة غير إغضاب ضميرى و إرضاء ذوى المطامع وأصدقاء الجاه[1] .

كان صديقاً صدوقا للزعيم مصطفى كامل ، أيده فى جهاده منذ الساعة الأولى ، ولم يكن يكتم مناصرته إياه فى أى منصب تولاه .

كان محافظاً للإسكندرية سنة ١٨٩٦ — ١٨٩٩ ، وأراد مصطفى كامل أن يلقى بها خطبة من خطبه الوطنية الكبرى ، فأوعزت إليه الحكومة أن يمنع إقامة الاجتماع الذى أعد لإلقاء الخطبة ، بحجة المحافظة على الأمن والنظام ، فأبى صبرى على الحكومة ما أرادت ، ورخص بإقامة الاجتماع ، وصارح الحكومة بأنه مسئول عن الأمن والنظام ، وألقى مصطفى كامل خطبته .

ولما عين وكيلا لوزارة الحقانية (العدل) فى نوفمبر سنة ١٨٩٩ ظل على مودته لمصطفى ، وكان فى غالب الأيام يخرج من الوزارة و يعرج بدار اللواء المقابلة لها ليزور صاحب اللواء و يقضى معه الوقت الطويل ، ولم يمنعه منصبه من المجاهرة بصداقته له ومناصرته إياه فى الوقت الذى كان الكبراء من الموظفين وغيرهم يخشون عواقب الاتصال به ، و إلى ذلك يشير شوقى فى رثائه لاسماعيل صبرى إذ يقول :

---

(١) ذكر هذه الواقعة الأستاذ احمد الزين فى مقدمته لديوان إسماعيل صبرى ص ٣٢ .

ويْح الشباب وقد تخطر بينهم هل متعــوا بتمسح وطواف ؟
لو عاش قدوتهم ورب (لوائهم) نـكس (اللواء) لثابت وقاف
فلـكم سـقاه الودّ حين وداده جَرَبٌ لأهل الحـكم والأشراف

دعوته إلى الدستور

وإنك لتجد فى شعر اسماعيل صبرى انسجاما مع سياسة مصطفى كامل وتمجيداً للوطنية ومناصرة للأمة فى جهادها للحرية والاستقلال .

قال فى قصيدة وجهها إلى الخديو عباس حلمى الثانى يوم عيد جلوسه سنة ١٩٠٨ يدعو إلى الدستور :

سدد سهام الرأى (بالشورى) يحط بك منه فى ظُـلم الحوادث فيلقُ
واسـبق به واضرب به وافتح به ما شئت من باب أمامك يُغلق

حادثة دنشواى

وقال فيها يصور حادثة دنشواى ويصف فظائع الإنجليز فيها والعفو الذى أصدره الخديو عن مسجونيها :

وأقلت عثرة قرية حكم الهوى فى أهلهـا وقضى قضاء أخرقُ
إن أنّ فيهـا بائس مما به أو رنّ جاوبه هناك مطوّق[1]
وارحمتا لجُناتهم ماذا جنوا ؟ وقضاتهم[2] ما عاقهم أن يتقوا ؟
ما زال يُقذى كل عين ما رأوا فيها ويؤذى كلّ سمع ما لقوا
حتى حكمت فجـاء حكمك آية للنـاس طىّ صحيفة تتألق
نزلت ترفرف حول كاتب نصها زمراً ملائـكةُ الرضى وتحلّق
شكرتك مصرُ على سلامة بعضها شكراً يغرب فى الورى ويشرق
ذكرت لك الصفح الجميل ولم تزل ترمى إلى أمر أجل وترمق[3]

---

(١) المطوق : السجين .
(٢) قضاتهم أى قضاة المحكمة المخصوصة التى حكمت عليهم .
(٣) يريد الدستور .

قانون (دنشاواى) ذاك صحيفة تتلى فترتاع القلوب وتخفق
هل يرتجى صفو ويهدأ خاطر والموت حول نصوصها يترقرق ؟
ومضاجع القوم النيام أواهلٌ بمعذب يردى وآخر يرهق
لن تبلغ الجرحى شفاء كاملا ما دام جارحها المهند يبرق
فاحكم بغير العنف واكسر سيفه فالحلم أجمل والمكارم أليق

رثاؤه لمصطفى كامل

وقد جزع لوفاة مصطفى كامل جزعا شديداً ، وشيع جثمانه إلى مرقده الأخير (يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨) ، ووقف على قبره يلقى قصيدته فى وداعه ، ولم يكد يلقى البيت الأول منها وهو :

أداعى الأسى فى مصر ويحك داعياً هددت القوى إذ قمت بالأمس ناعياً

حتى ظهر عليه التأثر الشديد والإعياء ، ولم يستطع أن يتم القصيدة ، وقد ألقاها فى حفلة تأبينه ، وتدل هذه القصيدة على مبلغ حبه له وإخلاصه لصداقته ، وإعجابه به ، وشدة حزنه عليه ، فجاءت آية فى بلاغة الرثاء ، ورقة التعبير عن الحزن والألم ، وكأن كل بيت فيها دمعة وفاء تذرفها عين الصديق على صديقه الحميم . قال :

أجل أنا من أرضاك خلا موافياً ويرضيك فى الباكين لو كنت واعيا
وقلبى ذاك المورد العذب لم يزل كما ذقت منه الحبّ والود صافيا
سوى أنه يعتاده الحزن كلما رآك عن الحوض المهدّد نائيا
ويعثر فى بعض الخطوب إذا مشى إلى بعض ما يهوى فيرجع داميا
وإن رامه سرب المسرات لم يجد محلا به من لاعج الهمّ خاليا
ألا عللانى بالتعازى وأقنعا فؤادى أن يرضى بهن تعازيا
وإلا أعينانى على النوح والبكا فشأنكما شأنى وما بكما بيا
وما نافعى أن تبكيا غير أننى أحبّ دموع البر والمرء وافيا

* * *

أيا (مصطفى) تالله نومك رابنا ... أمثلك يرضى أن ينام اللياليا ؟
تكلم فإن القوم حولك أطرقوا ... وقلْ ياخطيب الحيّ رأيك عاليا
لقد أوشكت من طول صمت وهجرة ... تخالك أعواد المنابر فانيا
وتبكيك لولا أن فيها بقية ... تعللها من ذلك الصوت داويا
فهل ألفتْ ما بين جفنيك والكرى ... مخالفةٌ أم قد أمنت الأعاديا ؟

* * *

فقدناك فقدان الكميّ سلاحه ... وسارى الدياجي كوكب القطب هاديا
وبتنا وقد باتت رفاتك فى الثرى ... سقاها الحيا[1] نستبطئ الدمع هاميا
ولولا تراث من أمانيك عندنا ... كريمٌ بكينا إذ بكينا الأمانيا
طواك الردا طى الكتاب تضمنت ... صحائفه من كل فخر معانيا
مضاء إذا البيض انتمت لأصولها ... غضبنا إذا سمّاك قوم يمانيا
ورأى يجلى اليأس واليأس ضارب ... على الأفق ليلا فاحم اللون داجيا
إذا ما تقاضينا ولم تك بيننا ... ذكرناها حتى نجيد التقاضيا
فليتك إذ أعييت كل مساجل ... قنعت فلم تعى الطبيب المداويا
ولينك إذ ناضلت عن مصر لم تفض ... مع الحبر قلبا يعلم الله غاليا

* * *

لقد ضاع إخلاص الطبيب وحذقه ... سدى فبكى الفخر الذى كان راجيا
ولم تنتهز تلك العقاقير فرصة ... ترى الناس فيها فضل (بقراط) باديا
نحييك سيفًا بات فى الترب مغمداً ... تقلّده فيما مضى الحق ماضيا

مواساته لجرحى الحرب

ولقد كان له شعر حماسى يملأ القلوب أملا وشجاعة .

قال من قصيدة له مخاطبا الأمير عمر طوسون يشكره على مواساته جرحى الحرب :

وكم تعهدت جرحى من أسود وغى ... إن يكشر الدهر عن أحداثه كشروا

---

(١) المطر .

مستنجدا من بنى مصرٍ إلى شمم إذا رأوا ثلمة فى حوضهم جبَروا
مستهميا هاميا و (النيل) فى وجل من أن تجود به أيمانكم حذر

الوحدة بين العنصرين

وقال داعيا إلى الوحدة الوطنية بين عنصرى الأمة :

عينىَ فيك اليوم قبطيَّة تروى الأسى عن مسلم موجَع
ويأخذ البر وآى الوفا عن الكتاب الطيب المشْرع

ومن قصيدة له حين اشتد الخلاف بين المسلمين والأقباط سنة ١٩١١ يدعو إلى الوحدة الوطنية :

خففوا من صياحكم ليس فى مصر لأبناء مصر من أعداء
دين عيسى فيكم ودين أخيه أحمد يأمراننا بالإخاء
مصر أنتم ونحن إلا إذا قا مت بتفريقنا دواعى الشقاء
مصر ملكٌ لنا إذا ما تماسكنا وإلا فمصر للغرباء !

تنديده بصنائع الاحتلال

وقال فى نوفمبر سنة ١٩٠٨ يندد بسياسة مصطفى فهمى حين سقطت وزارته وكان مواليا للاحتلال خاضعا له :

عجبت لهم قالوا سقطتَ ومن يكن مكانك يأمنْ من سقوط ويسلم
فأنت امرؤ ألصقت نفسك بالثرى وحرمت خوف الذل ما لم يحرم
فلو أسقطوا من حيث أنت زجاجة على الصخر لم تصدع ولم تتحطم[1]

فى الإباء وعزة النفس

ومن قوله فى الإباء وعزة النفس ، والزراية بالمتكبرين :

---

(١) أى أن مصطفى فهمى كان فى منزلة دانية لا يؤلمه السقوط منها ، بحيث لو أسقطوا زجاجة من ذلك المكان المنخفض لم تنكسر !

أيها التائه[1] المدلّ علينا ... ويك قل لى : من انت ؟ إنى نسيت
لو فرشت الطريق درّا لأخطو ... فوقه نحو داركم ما رضيت
أنا أغنى من أن يقال فلان ... وفلان تزاورا ما حييت !

وقال فى الاستمساك بالكرامة :

لكسرة من رغيف خبز تؤدم بالملح والكرامة
أشهى إلى الحرّ من طعام يُختم بالشهد والملامة

يستنكر تعدد الزوجات

وقال يذم تعدد الزوجات :

يا من تزوج باثنتين ألا اتئدْ ... ألقيت نفسك ظالما فى الهاوية
ما العدل بين الضرتين بممكن ... لو كنت تعدل ما أخذت الثانية !

التوحيد والحرية

وله فى تمجيد التوحيد والحرية كلمات بليغة وإن لم تكن شعرا إلا أنها تشبهه فى النغم والرنين وقوة الأثر ، وهى من الشعر المنثور البليغ . قال :

أحب التوحيد فى ثلاثة : الله . والمبدأ . والمرأة .

وأحب الحرية فى ثلاثة :

حرية المرأة فى ظل زوجها

وحرية الرجل تحت راية الوطن

وحرية الوطن فى ظل الله .

تنديده بالظلم والاستعمار

قال فى قصيدة له يخاطب (الدواة) :

وإذا الظلم والظلام استعانا ... يوم نحس بأجهل الجاهلينا

---

(١) التائه : المتكبر من التيه بكسر التاء .

واستمدا من الشرور مدادا فاجعليه فى قسمة الظالمينا

إلى أن قال :

وإذا كان فيك نقطة سوء كونت من خيانة تكوينا

فاجعليها قسط الذين استباحوا فى السياسات حرمة الأضعفينا !

تنديده بالمستعمرين

قال ينعى على إيطاليا عدوانها على طرابلس (ليبيا) سنة ١٩١١ و يندد بما فى فعلتها من الغدر ونقض العهود والمواثيق :

بعضَ هذا الجفاء والعدوان راقبى الله أمةَ الطليان !

قد ملأت الفضاء غدرا وجهلا وتنسمت غارب الطغيان

و بعثت السفين ترمى طرابلس بحرب مشبوبة النيران

تخرق البحر والمواثيق والعهدَ جهارا وذمة الجيران

سيَّرتها أضغان قوم لقوم سَلِموا من دناءة الأضغان[1]

من رآها تجرى توهم أن القوم همّوا للثأر للأوطان

لا وربّ الأسطول ما حمل الأسطول جيشا إلى حمى الحبشان[2]

إن قوم الطليان أحرص من أن يُفضحوا مرتين فى ميدان

الامتيازات الأجنبية

وقال فى هذه القصيدة يشير إلى الامتيازات الأجنبية التى منحتها الدول الشرقية للأورو بين فقابلوها بالغدر والعقوق واتخذوها وسيلة للعدوان على هذه الدول :

ويْحهم ما لصنعهم أبطر القو م فعقّوا ما كان من إحسان ؟

ولماذا تمخض السلم عن حر ب لظاها يشوى الوجوه عوان ؟

---

(١) يريد بالذين سلموا من دناءة الأضغان العرب وهم المعتدى عليهم فى هذه الحرب .

(٢) يشير بهذا البيت والذى يليه إلى هزيمة الطليان أمام الأحباش فى معركة عدوه المشهورة سنة ١٨٩٦ ويعيرهم بالسكوت عن الأخذ بثأرهم فى هذه المعركة .

منحٌ قد بذرن فى شر أيدٍ كن مذ كن منبت الكفران
هكذا فلتك المروءات فى عصـــر البهاليل من بنى الرومانِ !

القوة سياج الاستقلال

وقال فيها يدعو إلى التسلح بالقوة للدفاع عن الذمار وصد مطامع الاستعمار ويحذر أمم الشرق من غدر الدول الاستعمارية وعدوانها وتبييتها الشر تحت ستار الود والصداقة :

لا يثق بعضنا ببعض وهذا ما أعد الإنسان للإنسان
إن تسلّم على الغريب فسلم فى ظلال السيوف والمران[1]
ربما أصبح العناق صراعا فى زمان الآداب والعرفان[2]

التغنى بعظمة مصر

وله قصيدة خالدة يتغنى فيها بعظمة مصر ومفاخرها ، ويستحث مصر الحديثة على إحياء مجدها ، قالها سنة ١٩٠٩ على لسان فرعون مصر يخاطب قومه ويبعث فيهم روح العمل لبناء مجد الدولة قال :

لا القوم قومى ولا الأعوان أعوانى إذا ونى يوم تحصيل العلا وانى

إلى أن قال :

لا تقربوا (النيل) إن لم تعملوا عملا فماؤه العذب لم يخلق لكسلان
ردوا المجـــرّة كدّا دون مورده أو فاطلبوا غـــيره ريّا لظمآن
وابنوا كما بنت الأجيـــال قبلكم لا تتركوا بعـــدكم فخرا لإنسان
لا تتركوا مستحيلا فى استحالته حتى يميط لكم عن وجه إمكان
مقالة هبطت من عرش قائلها على مناكب أبطال وشجعان
مادت لها الأرض من ذعر ودان لها ما فى المقطم من صخر وصـــوان

---

(١) يريد بالمران الرماح أى القوة المسلحة .

(٢) فى هـذا البيت يتهكم بالدول الأوروبية وماتنطوى عليه من الغدر ونقض العهود فى عصر المدنية والعلوم والآداب .

يبنون ما تقف الأجيال حائرة أمامه بين إعجـــاب وإذعان
من كل ما لم يلد فكرٌ ولا فتحت على نظائره فى الكون عينان
ويشبهون إذا طاروا إلى عمـل جنا تطير بأمر من (سليمان)

* * *

(أهرامهم) تلك حيّ الفنّ متخذا من الصخور بروجا فوق كيوان
قد مر دهر عليها وهى ساخرة بما يضعضع من صرح وإيوان
لم يأخذ الليل منها والنهار سوى ما يأخذ النمل من أركان نهلان
جاءت إليها وفود الأرض قاطبة تسعى اشتياقا إلى ما خلد الفانى
فصغرت كل موجود ضخامتُها وغض بنيانها من كل بنيان
وعاد منكر فضل القوم معترفا يثنى على القوم فى سرٍّ وإعلان
تلك الهيا كل فى الأمصار شاهدة بأنهم أهل سبق . أهل إمعان
إذا أقام عليهم شاهدا حجر فى هيكل قامت الأخرى ببرهان
كأنما هى والأقوام خاشعة أمامها صحف من عالم ثانى
تستقبل العين فى أثنائها صور نصيحة الرمز دارت حول جدران
لو أنها أعطيت صوتا لكان له صدى يروّع صم الإنس والجان

وختمها بقوله :

أين الأولى سجوا فى الصخر سيرتهم وصغروا كل ذى ملك وسلطان
بادوا وبادت على آثارهم دول وأدرجوا طىّ أخبار وأكفان
وخلفوا بعدهم حربا مخلدة فى الكون ما بين أحجار وأزمان
وزُحزحوا عن بقايا مجدهم وسطا عليهم العلمُ ذاك الجاهل الجانى
ويل له هتك الأستار مقتحما جلال أكرم آثار وأعيان
للجهل أرجح منه فى جهالته إذا هما وزنا يوما بميزان

إلى شوقى فى منفاه

وكان على ود صميم مع شوقى ، وحينما نفى شوقى من مصر خلال الحرب العالمية الأولى ظل على صلته به ، وكان شوقى قد أرسل إليه من منفاه بالأندلس سنة ١٩١٧ بيتين من قصيدة له مشهورة[١] قال فيهما :

يا سارى البرق يرمى عن جوانحنا ... بعد الهدوء ويهمى من مآقينا[٢]

لما ترقرق فى دمع السماء دماً ... هاج البكا فخضبنا الأرض باكينا !

فأجابه صبرى بهذه الأبيات :

يا وامض البرق كم نبّهت من شجن ... فى أضلع ذهلت عن دائها حينا

فالماء فى مقل ، والنار فى مهج ... قد حار بينهما أمر المحبينا

لولا تذكر أيام لنا سلفت ... ما بات يبكى دما فى الحى باكينا

يا آل ودى عودوا لا عدمتكم ... وشاهدوا ويحكم فعل النوى فينا

يا نسمة ضمخت أذيالها سحرا ... أزهار أندلس هبّى بوادينا[٣]

وقد عاش اسماعيل صبرى كريم الخلق ، صادقا عيوفا ، أبيا وفيا لوطنه وأصدقائه ، معتزا بكرامته ، صريحا محبا للحق ، بعيدا عن الزهو والخيلاء ، وظل على هذه الأخلاق الفاضلة إلى أن توفى فى ٢١ مارس سنة ١٩٢٣ بعد مرض طويل ، وخلف كنوزا من الشعر والوطنية ، والفضائل النفسية ، أضفت على اسمه هالة من المجد والخلود .

---

(١) سيرد ذكرها فى الحديث عن شوقى .

(٢) يريد شوقى أن البرق قد اقتبس اشتعاله من نار جوانحه وتخيل أن ما يهمى به البرق من المطر مشتق من دموعه .

(٣) يخاطب صبرى نسمة الأندلس التى عطرتها أزهاره ويعيش فى جوها شوقى ويناجيها أن تهب عليه فى مصر .